التعليم الخلاق أساس لمجتمع منتج

د. سعيد بن عطية أبو عالي
مدير عام التعليم الأسبق بالمنطقة الشرقية
عميد ومؤسس لكلية الباحة الأهلية

أيام دراستي في الغرب (الأمريكي) تملكني الإعجاب بقدرة الأمريكيين على فتح الجروح الاجتماعية، وتشريح المشكلات الوطنية وذلك من خلال:

- البحث عن الأسباب.
- تقدير الأضرار.
- اقتراح الحلول في خطة عمل حسب الإمكانات.
- تحديد بداية الانطلاق لتنفيذ الخطة.

وأثناء تلك الأيام عاصرت لجاناً وطنية متخصصة لدراسة حالات الضعف والمرض التي تعرض لها المجتمع الأمريكي من جراء عدد من المعضلات أبرزها:

- سبق السوفييت بإرسال قمر صناعي إلى الفضاء (سبوتنيك).
- الإحساس بعدم مسايرة (ثورة المعلومات والانفجار المعرفي).
- انتشار الأمراض الجديدة الفتاكة مثل الإيدز والسرطان.
- سقوط أمريكا في مستنقع (الحرب الفيتنامية).
- ظهور البطالة والفقر وتأخر الصناعة والتجارة.

والمدهش أن اللجان بما سخر لها من إمكانات مادية تساعدها على مهامها فإنها لا تركن إلى رأي المتخصصين من أعضائها، بل إن كل لجنة ترجع إلى القاعدة الشعبية في كل مضمار، وبحكم تخصصي فقد رأيتهم يرجعون إلى المعلمين والقادة التربويين وأساتذة الجامعات، والمستفيدين من مخرجات العملية التعليمية مثل خبراء الصناعة والزراعة والاقتصاد والاجتماع، وأولياء الأمور والطلاب أنفسهم بالإضافة إلى أعضاء المجالس والهيئات البرلمانية. واللافت للنظر أن الجميع لا يستقبلون توصيات اللجان الوطنية بالترحاب فحسب، بل إنهم يقبلونها ويبدأون العمل في إطاراها. سألت نفسي يومها: هل يمكن أن يحدث مثل هذا في بلدي، المملكة العربية السعودية؟

«وطن معاصر يلتزم الثوابت» شعار يستلزم إرساء دعائم نظام تربوي يؤصل للأخلاق والمعرفة والعمل

الحوار: أهداف سامية

وعندما أعلن عن تأسيس مركز الملك عبدالعزيز

للحوار الوطني غمرتني (الفرحة) وتملكني (الأمل) في تطوير مسيرة العمل الوطني في بلادي بما يجعلها تعيش العصر وتستشرف المستقبل بما يجعل هذا الوطن مثالاً على التمسك بالإسلام ومعايشة التقدم التقني والاقتصادي في العالم، بل المساهمة فيه والمشاركة في صنع القرارات الدولية لأن الإسلام دين العلم، ويحث على التعلم، ويشجع على الكشف والتفوق والابتكار.

والحوار عندما يصبح عملاً وطنياً فإنه يرسخ أهدافاً سامية يعود نفعها على البلاد والعباد مثل:

- طرح الفكرة الجديدة (خطة العمل) على الناس لمناقشتها في إطار المفهوم النير: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب.
- تقديم الفكرة الجديدة عن طريق الإقناع وقبول الرأي الآخر بأسلوب حواري يلتزم حسن الخطاب، وعدم ازدراء الفكرة المقابلة أو تحقيرها والتقليل من شأنها.
- قبول الاختلاف على أنه سنة حسنة من سنن الكون والحياة، وأنه يؤدي إلى أفضل الآراء وأحسن النتائج.
- الاستفادة من تجارب الآخرين، وذلك بتعزيز جوانبها الإيجابية وتفادي سلبياتها.
- الخروج في النهاية بفكرة تصلح للفرد والجماعة ولا تضر مصلحة الآخرين.

والعملية الحوارية في بلادنا لا تبغي غير الهدوء الإيجابي الذي يتمسك بالثوابت الخلاقة، ويستشرف آفاق المستقبل الذي هو (مجال التحدي) لنا من أجل الحفاظ على وطن يحترم الإنسان (ولقد كرمنا بني آدم) ويطور حياته ويجددها (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ويصون مقدرات ومكتسبات الوطن المعنوية والمادية "كلكم راع وكل مسؤول عن رعيته".

وتجنباً للاسترسال في التأطير النظري للحوار وأساليبه فإنني أقرر بأن دعوة القيادة العليا في بلادنا إلى اعتماد الحوار الوطني في كل ما يخص الوطن والمواطنين قد وضعت الأمر كله بين أيدي العلماء والباحثين والمتخصصين والمهتمين.

عملية إنسانية

إنني في ضوء ما أسلفت أنظر إلى الحوار على أنه عملية إنسانية فطرية، وبالتأمل في واقع حياتنا اليوم وما نواجهه من تحديات علمية، وما يمثله تيار العولمة من تحديات سياسية واقتصادية فإنني أرى الحوار بين أفراد ومؤسسات بلادنا أمراً عقلانياً. وفي توجيهه عليه الصلاة والسلام دلالات موضوعية كثيرة حيث قال ما معناه: "أنتم الأعلمون بأمور دنياكم".

والحقيقة التي أشرنا إليها حول كون الحوار عملاً إنسانياً جمعياً (يتطلب أكثر من واحد على الأقل) وكونه نشاطاً عقلانياً فإننا نحتاج، أفراداً وجماعات، إلى التفكير الإبداعي بدءاً من النقد الذاتي الهادف.

ولقد ابتدع مركز الحوار الوطني أسلوباً جديداً وفاعلاً في مناقشة القضايا الاجتماعية التي طرحها خلال السنوات الماضية بحيث أشرك المختصين والباحثين والمعنيين والمستفيدين في النقاش في أنحاء البلاد. إن الحوارات والدراسات التي دارت حول واقع التعليم في بلادنا؛ وأساليب تحريكه وتطويره نحو مستقبل يتجدد فيه إعادة بناء الوطن بما يضمن الإسهام الخلاق في العلوم والتقنية (ولا نبقى مستهلكين فقط) وتوفير فرص العمل للإنسان... كل ذلك يمثل نقلة حضارية لمجتمعنا العربي السعودي.

استراتيجية التعليم

إن الأمر يتطلب من القادة والمسؤولين إطلاق استراتيجية التعليم التي تضمنها البيان الختامي لمؤتمر الحوار الوطني حول التعليم الذي عقد بمنطقة الجوف، وقدمه المشاركون إلى خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز وسمو ولي عهده الأمين سمو الأمير سلطان بن عبدالعزيز. ومن أهم عناصد هذه الاستراتيجية: إن مجتمعنا "حكومة وشعباً" بحاجة إلى تطوير أساليب ونظم التعليم في المدارس والمعاهد والجامعات ومراكز البحث العلمي. إن الحال الراهن يتطلب البدء في ذلك بأسلوب علمي وعملي يوفر الحقائق والمعلومات لكل مواطن وكيفية السير على طريق التطوير والتجديد.

لابد لنا من الاعتماد على حقائق الأمور، والانطلاق من معلومات صحيحة لا تقبل الافتراضات الخاطئة ولا الأوهام المضللة والتعاون في سبيل تعزيز مكتسباتنا التي وصلنا إليها حتى الآن شرط أساس في نجاح كل مشروع. نحن شعب وارث للدعوة الإسلامية ولا مناص لنا من اعتماد الدين أساساً لفكرنا، وبلدنا رائد في دنيا المسلمين الذين يتوجهون شطر مكة المكرمة خمس مرات في كل يوم وقد أرسينا دعائم نهضة علمية وزراعية وصناعية واقتصادية تنتظر منا تحديثها وتطويرها وتوسيعها. ولكي نحقق مقولة "وطن معاصر يلتزم الثوابت" فإن ذلك لا يكون إلا بنظام تربوي وتعليمي يؤصل للأخلاق والمعرفة والعمل. (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون).